

التجربة النقدية عند إدوارد سعيد - (قراءة في المنجز النقدي ما بعد الكولونيالي)

The cash experience at Edward Said

(Reading in postcolonial monetary achievement)

أحمد العارف*¹، إشراف الدكتور: محمد قراش²

¹. كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة زيان عاشور الجلفة- الجزائر

². كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة زيان عاشور الجلفة- الجزائر

تاريخ النشر: 2018/12/31

تاريخ القبول: 2018/11/29

تاريخ الإرسال: 2018/06/03

الملخص:

يتناول هذا البحث مجموعة من المفاهيم والإجراءات التي استند عليها إدوارد سعيد في تحليل الحقبة الاستعمارية منها الخطاب الاستشراقي الذي سعى للهيمنة والسيطرة على الشرق المخلوق معرفيا بواسطة مؤسسات سلطوية أهمها المعرفة، إضافة إلى المقاومة الثقافية التي أبدتها في الفترة ما بعد الكولونيالية من رفض للمسلمات التي تدعي نفسها بأنها محور العلوم، وهنا يطرح التساؤل نفسه إلى أي مدى استطاع إدوارد سعيد تفكيك الخطاب الاستعماري، وما هي الإجراءات والأدوات والسبل التي اتبعتها لإمطاة اللثام عن الخطاب الفكري الكولونيالي؟

الكلمات المفتاحية: الكولونيالية؛ الاستشراق؛ ما بعد الكولونيالية؛ النقد الدنيوي، المقاومة الثقافية.

Abstract:

This research deals with a set of concept and procedures on which EDWARD SAID was based on the analysis of the colonial era which is known as colonialism , including the orientalist discourse ,which sought to dominate and control the EAST , which is the ideologically defined by authoritarian institutions ,the most Important of which is the cultural resistance it demonstrated in the postcolonial period Itself as the centre of science , this raises the question of the extent to which EDWARD was able dismantle the colonial discourse , and what procedures and tools and ways to reveal the intellectual discourse of colonialism ?

Keywords: Colonialism; Orientalism; Post Colonialism; World currency; Cultural resistance.

* الباحث المُرسِل: ahmedlaref624@yahoo.fr

تمهيد:

يشير مصطلح ما بعد الكولونيالي إلى فترة زمنية فاصلة بين مرحلتين مرحلة الكولونيالية ثم مرحلة ما بعد الكولونيالية فمفهوم ما بعد الكولونيالية مصطلح ظهر بعد الاستقلال يرتكز على تفكيك الخطاب الاستعماري الكولونيالي والآثار التي تركتها المرحلة الكولونيالية على الشعوب المستعمرة، ولقد خلص إدوارد سعيد في النقد ما بعد الكولونيالي إلى تخليص المستعمرات من تبعية الاستعمار وذلك عبر استقراء الخطاب الكولونيالي مستندا على استراتيجيات وأدوات منهجية استخلصها من أعمال ميشال فوكو وجاك ديريدا.

يعتبر إدوارد سعيد من بين منظري النظرية ما بعد الكولونيالية التي نشأت على أعقاب النظرية الكولونيالية الإمبريالية، محللا المقولات المركزية الغربية إضافة إلى الخطاب الكولونيالي، ففي كتابه الاستشراق اعتبره خطاب الغرب عن الشرق بالاستناد إلى أدوات إجرائية ومفاهيم جديدة منها النقد الدنيوي والقراءة الطباقية، كما حلل الخطاب الكولونيالي وعلاقاته بمؤسسات الدولة من بينها السلطة التي تسعى للهيمنة من خلال صناعة الآخر عبر محور الذات التي تعتبر نفسها محور الآداب والعلوم من خلال المركزية الغربية إضافة إلى العملية الإمبريالية الثقافية لتبقي مستعمراتها تابعة لها والآخر المتنوع حتى يتسنى لها البقاء في المركز خدمة لمصالحها الإمبريالية الاستعمارية.

نبذة عن إدوارد سعيد:

ولد إدوارد سعيد في نوفمبر 1935 ميلادي بمدينة القدس الفلسطينية، وهو مُنظر أدبي فلسطيني وحامل للجنسية الأمريكية، وكان أستاذا جامعيا للغة الإنكليزية والأدب المقارن في جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة الأمريكية ومن الشخصيات المؤسسة لدراسات ما بعد الكولونيالية، وله العديد من المؤلفات أهمها الاستشراق الذي صدر عام 1978 ثم الثقافة والإمبريالية وغيرها من المؤلفات كما كان مدافعا عن حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني، وقد وصفه روبرت فيسك بأنه أكثر صوت فعال في الدفاع عن القضية الفلسطينية وتوفي في 25 سبتمبر عام 2003.

مفهوم مصطلح ما بعد الكولونيالية:

يمثل مصطلح ما بعد الكولونيالية المفهوم والتصور العام لهاته النظرية التي تعني تحليل الخطاب الاستعماري، فظهر مصطلح ما بعد الكولونيالية في فاصلة زمنية بين

الحقبة الاستعمارية وتحرر الشعوب المستعمرة من الاستعمار الغربي الأوروبي في معنى تاريخي تسلسلي واضح، وإذ يشير إلى فترة ما بعد الاستقلال على أي حال، فقد استخدم النقاد الأدبيون هذا المصطلح بداية من أواخر الستينات وبداية السبعينات لمناقشة الآثار الثقافية المتعددة للاستعمار.

فهذا المصطلح (ما بعد الكولونيالية) نتيجة إفرزات الكولونيالية التي تعرف بالهيمنة والسيطرة على الآخر في شتى الميادين السياسية والثقافية وغيرها، وبعد استقلال الآخر الذي نال حريته أي الشعوب المستقلة حديثا من المرحلة الكولونيالية بقيت تبعاتها الثقافية على الدول المستعمرة، فظهرت أصوات تنادي بالاستقلال الثقافي وتفكيك الخطاب الكولونيالي، ومن هنا ظهرت الدراسات ما بعد الكولونيالية و"ترعرعت على كل من انهيار الإمبراطوريات الأوروبية العظمى في أربعينيات القرن العشرين وخمسينياته وستينياته، وما تلا ذلك من بروز الدراسات الثقافية المناهضة للهيمنة في الدوائر الأكاديمية"¹، فالدراسات ما بعد الكولونيالية ظهرت بعد استقلال الدول المستعمرة واشتغلت على تفكيك الخطاب الكولونيالي، ومجاهة الفكر الإمبريالي ذلك بتعطيل ودحض آليات اشتغاله إضافة إلى إسماع صوت الآخر "فما بعد الكولونيالية لا تعني مخاصمة الكولونيالية وإنما تعني الوعي بالثقافات الأخرى، بالهويات والاتجاهات والكتابات التي أريد لها أن تندثر أو تنطمس لتعود ثانية إلى الظهور بصفها الأخرى، أي على أساس أنها (كتابات الرد) القادمة من المستعمرات حاملة معها هويتها وتنقيباتها في خطاب المركز"²، فتسعى لإثبات الآخر المغيّب المهمش في الخطاب الاستعماري في مختلف المجالات، وإلى تحليل ما بلورته الثقافة الإمبريالية لدى مستعمراتها بكشف المسكوت عنه في خطاب الأنا المركزي المهمين، وإلى إثبات ثقافة المستعمرات وإظهار وتبيان وعيها الثقافي في مقابل الإمبريالية الثقافية.

من خلال هذا تظهر المقاومة الثقافية لدى الأخرى المستعمرات في ما بعد الكولونيالية فالآخر يقاوم الأنا الإمبريالي، فأصبح مفهوم ما بعد الكولونيالية ذو شحنة أنثروبولوجية، فالبنية الاستعمارية قامت بالتقليل من شأن الثقافات المهمّمن عليها وهذه الوضعية لم

¹ دوغلاس روبنسون: الترجمة والإمبراطوية "نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية"، تر: تائر ديب، المشروع القومي للترجمة، ط2005، I، القاهرة، ص27.

² سمير الخليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي المقارن "إضاعة توثيقية للمفاهيم المتداولة"، دار الكتابة العلمية، د/ط، ص258.

تنته بعد الاستقلال فقامت على أساسها النظرية ما بعد الكولونيالية وبنّت موضوعاتها على الاهتمام بأصناف الخطابات وأنماط الفكر المنبثقة عن تجربة المواجهة بين الإمبراطوريات ومستعمراتها، بإعادة إنتاج الخطاب الاستعماري من طرف رواد هذه النظرية وعلى رأسهم إدوارد سعيد وهومي بابا وغاياتري سبيفاك، وساهمت في خلق وعي مصطنع بالذات مما جعل قوة فعل الذات المستعمرة ممكنة.

فالتجربة الاستعمارية أنتجت معرفة أعادت النظر في يقينيات المركز، والدراسات التي تندرج في النقد ما بعد الكولونيالي تنفلت من التحليلات الطبقيّة الضيقة مما يوجب فهم استعانة النظرية ما بعد الكولونيالية بنظريات ما بعد البنوية والأفكار المنبثقة عنها، والتي تجاوزتها في الآن ذاته فأعمال ديريدا ولاركان وفوكو تطرح مفهوم الحدائث والخطابات المؤسسة لها من وجهة نظر نقدية.

الاستشراق والتمثيل:

شكلت العلاقات الثقافية والفكرية بين الشرق والغرب إحدى أهم القضايا جدلاً في الساحة الثقافية متمثلة في ظاهرة الاستشراق باعتبارها من أهم الخطابات التي تناولها الغرب عن الشرق وهو ببساطة المعرفة التي اختلقها الإنسان الأوروبي الغربي لتمثيل الشرق.

ومن الذين تناولوا هذا الموضوع والعلاقة الشائكة بين الشرق والغرب الناقد إدوارد سعيد ذا الأصول الفلسطينية، فيستند في تحليل الخطاب الاستعماري على تحليل الخطاب الاستشراقي "ذلك أن دراسة سعيد للاستشراق دراسة لخطاب استعماري، خطاب تلتحم فيه القوة السياسية المهيمنة بالمعرفة والإنتاج الثقافي"¹، فالخطاب الاستعماري هو خطاب مؤسساتي تابع للسلطة والثقافة تعتبر خادمة لها من خلال تكريسها في الخطاب الاستشراقي.

ويعد الاستشراق خطاب الغرب عن الشرق من خلال العلاقة القائمة بين المؤسسات الإمبريالية والمعرفة والسلطة التي أفضت إلى وجود الشرقي في خطاب المركزية الغربية التي تعتبر نفسها المركز والشرق هامشاً، "فالرابطة ما بين المعرفة والسلطة، هي التي أوجدت صورة الشرقي، وطمست من زاوية ما"²، والمؤسسات الاستشراقية عملت على

¹ سعد البازعي ميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، البار البيضاء، المغرب، ط3، 2002، ص158.

² إدوارد سعيد: الاستشراق "المفاهيم الغربية للشرق"، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 المزيدة، 2006، ص79.

بعث صور نمطية جاهزة عن الشرقي الذي يمثل الآخر بالاستناد إلى المعرفة عن طريق الخطب الاستشراقية التي ذلت هيمنة الغربي على الشرقي ف "أصبح مفهوم سلطة الغرب على الشرق مسلما به باعتباره يتمتع بمكانة الحقيقة العلمية"¹، والغرب أوجد الشرقي الآخر لذلك لا بد أن يسيطر عليه.

ويتمثل الخطاب الاستعماري في صناعة الآخر الشرقي عن طريق الخطاب الاستشراقي ف"الجانب الصامت في الاستشراق هو بالذات هذا التواطؤ الذي حدث بين المعرفة والسلطة"² بواسطة تمثيل الغربي للشرق، فالتمثيل يعد في "طليعة المفاهيم التي اجترحها إدوارد سعيد منذ كتابه الاستشراق هادفا بواسطة إلى إبراز كيفية حضور الشرق في الكتابات الغربية باختلاف صنوفها من إبداعية وفكرية، أو في شكل رحلات وتقارير سياسية. وهكذا توصل سعيد، بفضل هذا المفهوم، إلى أنّ الشرق تم تمثيله وفق الرؤية الغربية، واعتباره فضاء مناقضا للغرب، لأنّه إذا كان هذا الأخير يحيل على كل القيم الحضارية المجيدة من تقدم ورقي وعقلانية، فإنّ الشرق يحرم من تمثيل نفسه، ويصادر حقه في الكلام، لترسم له صور نمطية راسخة، ويسيج في قوالب جاهزة قوامها الهمجية والبدائية والتخلف"³، وهنا أركز على تمثيل الغرب للشرق في العملية الإمبريالية، ويزيد سعيد في تحديد مفهوم تمثيل الغربي للشرقي ف "يقول ادوارد سعيد عن (التمثيل) بأنه مفهوم مسرحي، أما علاقة الشرق به، فهو أن(الشرق) محجوز داخل (خشبة المسرح)"⁴، فالمؤسسات الإمبريالية صنعت الخطاب الاستشراقي الذي يمثل السكان الأصليين للشرق امتثالا للإمبريالية عن طريق تمثيلهم، بطمس هوياتهم التاريخية والثقافية وصناعتهم وفق المؤسسات الإمبريالية تسهيلات لذوبانهم في العملية الإمبريالية، "فالنصوص التي أنشأها المستعمر قد عملت على وضع الآخر وتأطيره ضمن بنية فكرية واجتماعية وسياسية ولغوية، أسهمت في تذليل عقبات السيطرة والهيمنة بالتضافر مع عناصر تتمثل بالهوية، والعرق، الجنس، والنوع واللغة، والجغرافيا"⁵،

¹ المرجع نفسه، ص 105.

² لويس بن علي: إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 2018، ص 83.

³ إدوارد سعيد من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء الهجنة والاختلاف تر: محمد الجرطي، منشورات المتوسط، إيطاليا، ط 2016، ص 9 / 10.

⁴ لويس بن علي: إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، مرجع سابق، ص 12.

⁵ رامي أبو شهاب: الرئيس والمخاتلة "خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر (النظرية والتطبيق)، المؤسسة العربية

ولأن تمثيل الغربي للشرق كان من بين أهم المفاهيم التي ركز عليها سعيد بناه النقدية في تحليل الخطاب الاستشراقي.

فالشرق هو من صناعة الغربي ولا يستطيع تمثيل نفسه "إنه لو استطاع تمثيل نفسه لفعل... لكنه مادام لم يستطع ذلك، فليقم هذا التمثيل بالمهمة من أجل الغرب"¹ والمعرفة هي من أوجدت هذا التمثيل من خلال علاقتها بالمؤسسات السلطوية وهذه الأخيرة استعملت المعرفة للسيطرة على الشرق من خلال تنميط صور جاهزة عنه وفق رؤية المركزية الغربية "فالعلاقة ما بين المعرفة والسلطة، هي التي أوجدت صورة الشرقي، وطمست من زاوية ما"² فالخطاب الاستشراقي هو خطاب الغرب عن الشرق لتأكيد هيمنة الغربي على الشرقي وتثبيت الأنا الإمبريالي خدمة للغرب "فأصبح مفهوم سلطة الغرب على الشرق مسلما به باعتباره يتمتع بمكانة الحقيقة العلمية"³ فالمعرفة خادمة للسلطة وتابعة لها لذلك استعملها الغرب في المؤسسات الاستشراقية لتسهيل السيطرة على الشرق باعتباره دونيا وتمثليه عن طريق صور نمطية جاهزة عنه تخدم الرؤية الإمبريالية الغربية من أجل وفرض قابلية الاستعمار والهيمنة وذلك بذوبان هوية الآخر الغربي في الإمبريالية الغربية بطمس تاريخه وثقافته.

النقد الدنيوي:

من بين المفاهيم التي تناولها في خطابه نجد مفهوم الدنيوية التي تناولها في كتابه الاستشراق والثقافة والإمبريالية، فمصطلح الدنيوية "يكشف بجلاء عن الإبدال الجديد الذي اقترعه إدوارد سعيد في مسار النظرية الأدبية الحديثة، فخلافا لاتجاهات ما بعد البنيوية التي غالت في بتر النصوص عن سياقاتها الخارجية، مركزة في التفاعل مع أنساقها التخيلية على اللعب الحر للدوال، وما ينتج عنها من إمكانيات تدليلية وافرة"⁴، فالنص لا يمكنه فصله عن مجتمعه الذي تنبني فيه ثقافته، وخلافا للبنيوية التي أهملت وأسقطت الخارج النصي واعتبرته مجموع من النظام اللغوي المتشابك بين عناصره، فسعيد يرى عكس ذلك بعدم بتر وقطع النص عن سياقه الخارجي لأنه يحمل

للدراسات والنشر، ط1، 2013، ص61.

¹ إدوارد سعيد: الاستشراق، مرجع سابق، ص70.

² المرجع نفسه، ص79.

³ المرجع نفسه، ص105.

⁴ إدوارد سعيد من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء الهجنة والإختلاف، مرجع سابق، ص10.

في طياته علامات ومدلولات خارج نصية تتمثل داخله "فأي نص أدبي مثقل بطريقة ما"¹.

وعليه، النص الأدبي وحدة ثقافية وهو حامل لخارجه من مدلولات وأنساق مضمرة يحاول ترسخها بطريقة ما فرواية قلب الظلام لجوزيف كونراد هي رواية إمبريالية حيث يقول سعيد "ربما لم يكن بوسع كونراد قط أن يستخدم مالرو لتقديم أية رؤية أخرى سوى رؤيا العالم الإمبريالية"² فالنصوص الأدبية هي حاملة لثقافة ما تحاول أن تفرض هيمنتها وسلطتها وسعيد حلل العلاقة الشائكة بين الإمبريالية الغربية والسلطة والنصوص الأدبية التي تمثلت فيها الإمبريالية بفرض هيمنتها وتاريخها وحضارتها على السكان الأصليين دواما لتمركزها حول الذات وباعتبار نفسها محور العالم. وجوابا "عن هذا الإشكال يمكن القول بأن معالم التفرد عند إدوارد سعيد في تناوله لمفهوم الدنيوية داخل ممارسته النقدية، تتجلى في توسيعه لدائرة المرجعي ليمتد إلى تحليل ما يمكن خلف البنيات النصية من قوى مادية تكشف علاقة المعرفة بالسلطة، وتشابكها مع كل ما هو مؤسساتي وهو الأمر الذي مكن سعيد من التقاط ما تتبطن به النصوص الأدبية الغربية من صور جاهزة عن الشرق، تنغياً تسويره في خانة التابع والهامشي، لتسييد الخطاب الاستعماري وتأييد هيمنته، وهو ما أغفله العديد من النقاد الماركسيين أمثال ريموند وليامز وفريديريك جيمسون وبيير ماشيري وآخرين. "3، فسعيد يرى أنّ النصوص الأدبية الغربية تحمل خفايا الإمبريالية الغربية التي تهيمن وتسيطر على السكان الأصليين، واعتبرها (النصوص) "كيانات موجودة في العالم، وحاضنة للأسئلة والقضايا المعتملة في منابها التاريخية والمجتمعية"⁴ فالنصوص الأدبية لدى سعيد هي نصوص تحمل وحدات ثقافية تتشكل هذه الوحدات من المجتمع الذي تنتهي إليه، فلحظة ولادة نص أدبي يمثل بالضرورة إيديولوجية وتاريخ وثقافة ذلك المجتمع وتجربته الاجتماعية في تلك اللحظة التي نشأ فيها هذا النص.

¹ إدوارد سعيد: العالم النص والناقد "دراسة نقدية"، تر: عبد الكريم محفوظ، إتحاد الكتاب العرب، ط2000، 1، ص32.

² إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، ط2014، 4، ص94.

³ إدوارد سعيد: من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء الهجنة والاختلاف، تر: محمد الجرطي، مرجع سابق، ص11.

⁴ المرجع نفسه، ص10.

ولعل سعيد يقر أنّ النص الأدبي كينونة مجتمع ما، فالمؤلف يشكل ويتشكل من ذلك المجتمع وهنا ما أرادته سعيد من خلال ربط النصوص بلحظة وجودها (تاريخية النصوص) أي يحاول تحليل البنيات الثقافية التي تتمثل في النص الأدبي في ذلك المجتمع، سواء كانت هذي البنيات ثقافية أو تاريخية، ويعيد قراءة النصوص إلى تاريخ وجودها، وهنا تكمن معالم التفرد لديه بكشف واستنطاق الوحدات والعلامات الثقافية الموجودة في النص وإرجاعها إلى تاريخيتها الحقيقية بتمثلياتها لكشف النسق المضمر الذي تحاول تمريره.

وبذلك يتجاوز الجانب الجمالي الذوقي للنص الأدبي إلى البحث عن ما يختفى وراء الجمالية الأدبية، فالنقد الدنيوي عند سعيد هو ربط النص بسياقه الخارجي الواقعي والتاريخي والثقافي.

النقد الطباقى:

من بين أهم المفاهيم التي اجترحها إدوارد سعيد في النقد ما بعد الكولونيالي مصطلح القراءة الطباقية، حيث يقول: "إننا بحاجة إلى منظور مقارن، أو بالأحرى طباقى (بمعنى الطباق الموسيقي) كي نبصر علاقة بين طقوس التتويج في انكلترة وحفلات البيعة في الهند في أواخر القرن التاسع عشر. أي أنه ينبغي علينا أن نملك القدرة على أن نتأمل بإمعان ونؤول"¹، وقد أخذ سعيد هذا المصطلح من الطبقات الموسيقية التي تتشكل في الحقل الموسيقي، و"وتحديدا من نوع محدد من الموسيقى التي ظهرت في القرون الوسطى، والتي اشتهرت باسم (نغمة ضد نغمة) أو (نغمة في مقابل نغمة)، وقد أصبح هذا النوع من الموسيقى اليوم يطلق عليه بمصطلح (الطباق الموسيقي)"²، فالقراءة الطباقية أخذها سعيد من الموسيقى و"تعني القراءة الطباقية كما أسميتها قراءة النص لما هو مشبوك حين يظهر مؤلف ما،"³ ويعطي إدوارد سعيد مثالا على هذا المفهوم بقوله: "مثلا، أن مزرعة استعمارية لقصب السكر تعان بوصفها هامة لعملية الحفاظ على أسلوب معين للحياة في انكلترة. وعلاوة فإن هذه مثل جميع النصوص الأدبية الأدبية. ليست مقيدة ببداياتها ونهاياتها التاريخية الشكلية"⁴، فالقراءة الطباقية هي إعادة

¹ إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، مرجع سابق، ص 101.

² لوينيس بن علي: إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، مرجع سابق، ص 328.

³ إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، مرجع سابق، ص 135.

⁴ المرجع نفسه: ص 135.

القراءة والتأويل الثاني، أي البحث في الأنساق الثقافية المضمرة التي يسعى الغربي لتميرها وفق الرؤية الإمبريالية التي تخدم المصالح الاستعمارية. فسعيد يعطينا مثالا في كيفية الحفاظ على الإرث الإمبريالي في الدول المستعمرة من خلال مزرعة قصب السكر، فمن أجل الحفاظ على الحياة الرغيدة لدى السكان الأصليين كما يصورها الغرب، الحفاظ على دوام الاستعمار الإمبريالي، وهكذا يسعى الغرب لتمير الأنساق الثقافية التي تخلد دوامه وهيمنته على الشرقي. وعليه، فسعيد يدعو إلى تعطيل آليات اشتغال الخطاب الإمبريالي من خلال المقاومة الثقافية له، وذلك بإعادة قراءة الروايات الغربية وكشف ما تتضمنه من وحدات وعلامات ثقافية إمبريالية التي تحاول أن تترسخ لدى السكان الأصليين، بتجاوز الجمالية الأدبية في النصوص إلى كشف المخبوء، فالقراءة الطباقية "هي استراتيجية في القراءة، تقوم على قراءة الرواية الأوروبية في علاقاتها بالروايات المضادة لها، وقد طورت هذه القراءة أدواتها التأويلية انطلاقا من تحرير القراءة نفسها من التمرکزات التأويلية التي أنتجها النقد الأوروبي لقرون"¹. فإعادة القراءة للأدب الأوروبي الذي ينتمي للمركزية الغربية أو الخطاب الإمبريالي يتضمن الكشف عن العلامات الثقافية الذي سعى الغرب لترسيخها لدى السكان الأصليين لتسهيل عملية الهيمنة والسيطرة عليهم، وباعتبار أنفسهم الهامشيين فسعيد "يعيد تعريف (التجربة الإنسانية) من منظور مقارن أو طباق، والتي تعني أنه على الناقد أن ينتبه إلى معطى تاريخي"²، فالقراءة الطباقية هي إعادة القراءة بتدخل وتشابك العلاقات التاريخية والإيديولوجية للكشف عن الإمبريالية والتصدي لها ف "إن شكل القراءة التي يبحث عنها إدوارد سعيد هي القراءة التي تعطي الأولوية لفعل المقاومة أو الضدية، فالتجربة التاريخية التي عاشها تمنح له نظرة طباقية (طباقية) contrapuntally، حيث أن المقاومة لم تعد مجرد ردود أفعال مشتتة، بل اكتسبت قدرا من التنظيم، على النحو الذي كان يتسم بها الاستعمار"³. فالقراءة الطباقية هي كشف الأنساق الثقافية المضمرة التي تخدم الهيمنة والسيطرة على السكان الأصليين، ولا تسعى للكشف فقط بل تتجاوز هذا الفعل إلى فعل المقاومة

¹ لوئيس بن علي: إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، مرجع سابق، ص 327.

² المرجع نفسه، ص 327.

³ بيل أشكروفت وآخرون: دراسات ما بعد كولونيالية. المفاهيم الرئيسية، تز: أحمد الروبي وآخرون، تق: كومة سامي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط 2010، 1، ص 283.

الثقافية بتعطيل اشتغال هذه الآليات وإنشاء نصوص ضدية مقاومة لها تحمل العلامات الثقافية للسكان الأصليين في محور الأنا والآخر لأجل إثبات الذات، فالنص الأدبي يخفي إيديولوجيات مناقضة.

المقاومة الثقافية سردا:

لقد شهد العالم ككل مقاومة في جميع الأشكال فالمقاومة "معناها: أن تقول لا، معناها الرفض، معناها المناهضة، معناها التمرد على.. معناها الاحتجاج ضد.. هي إذن شكل من أشكال العصيان والثورة"¹. فالمقاومة هي رفض كل أشكال التسلط والهيمنة في جميع المجالات بطرق شتى منها العصيان والاحتجاج.. لذلك "تأخذ المقاومة شكل الفعل العسكري أو الفعل السياسي أو الفعل الروحي كما في التصوف (مقاومة سلبية)، أو الفعل الثقافي (مقاومة ثقافية) كما في أدب المقاومة (مثلا الإنسان المتمرد عند ألبير كامو، واللا منتهي عند كولن ويلسون، وروايات كافكا..)"²، فالمقاومة على أشكال عديدة منها المقاومة العسكرية والسياسية والثقافية، وهنا تهتمنا الأخيرة أي المقاومة الثقافية التي تتشكل في النقد ما بعد الكولونيالي رافضة لشكل الهيمنة الثقافية الغربية المركزية منتهجة تفكيك وتحطيم بقايا الخطاب الإمبريالي الثقافي بعد الاستعمار الذي يسعى إلى تمرير بعض الأنساق الثقافية بتشكيل وعيا كولونياليا يستند على مقولات المركزية الغربية، فالمقاومة الثقافية "عملية معقدة تهتم بالأدب القومي وتحاول المزج بين الأنواع الأدبية"³، من خلال الكتابة السردية المضادة التي تقاوم الكتابة المركزية التي تستند على الأنا الكولونيالي ويمكن تسميتها بالسرديات المضادة التي تحاول التمركز في مكان النص الكولونيالي. وهنا ما يمكن تسميته بالمقاومة الثقافية التي لا تسعى لإثبات النص ما بعد الكولونيالي المهمش مكان النص الكولونيالي الذي يعتبر نفسه مركزا لبقية النصوص فقط، وإنما تسعى لإثبات خصوصية الثقافة المهمشة.

فالنص السردى المضاد يحمل علامات ووحدات ثقافية تتشكل بجزء أو آخر داخل هذه النصوص مثل ما فعله الطيب صالح في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، فاللغة

¹ ثقافة المقاومة تأليف مجموعة من الأكاديميين، إشراف وتحقيق: وحيد بن بوعزيز، إصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، د/ط، ص63.

² المرجع نفسه: ص63.

³ سليم حيولة: أدب ما بعد الاستعمار "الهيئة كشكل من أشكال المقاومة الثقافية"، ثقافة المقاومة تأليف مجموعة من الأكاديميين، مرجع سابق، ص427.

السردية تغدو مسرحاً لممارسة فكرة المقاومة الثقافية، بتحليل علاقات السلطة والقوى الفاعلة المتمثلة في النص الكولونيالي، وهذا ما يجعل المقاومة السردية المضادة من طرف التابع في علاقة شائكة مع الكتابة السردية الأوربية التي تتدخل في كتابة التابع، مما يجعل تشكل ثقافة التابع في غاية الصعوبة لدى السكان الأصليين في صراعهم مع المستعمر، ف"السرد إذن لا يقوم على عملية إعادة الكتابة أو تمثل النص الكولونيالي، لكن العملية في جوهرها تفكيك لمظاهر حضور السلطة الكولونيالية في تلك النصوص، وتحريير صورة الذات من منظومات التمثيل الكولونيالية التي صورت الآخر-التابع خارج شرطيته الاجتماعية كذات جوهرائية"¹، والصراع في التمركز بين الذات والآخر وبين الغرب والشرق بتمثيل الغربي للشرقي، يجعل استعادة الأصليين لذاته أمراً معقداً فالمجتمع الأصلي يحاول إثبات ذاته بثقافته التي تشكل داخل النصوص السردية بتحريير تمثيله من المعرفة الغربية.

فالمقاومة الثقافية في النقد ما بعد الكولونيالي تستند على تفكيك الخطاب الكولونيالي ومجاهته وتفكيك المقولات المركزية الغربية، إضافة إلى إسماع صوت الآخر المهمش في مجال بين أن علاقات الهيمنة صناعة رمزية يتدخل فيها التشكيل السردية (ريكور)، لهذا لا يستطيع المستعمر تجاوز وضعيته ولا يستطيع التابع (سبيفاك) تغيير كينونته ولا تستطيع المرأة (جوديثبوتار) استرجاع مستعمراتها² إلا عن طريق المقاومة الثقافية، "فهي في حد ذاتها عملية إظهار لهوية ظلت مقموعة ومغيبية وغير معترف بها"³، فالمقاومة الثقافية هي ضدية الأنا الغربية المركزية الإمبريالية، وبالأحرى بين الأنا الذي يمثل الإمبريالية الغربية الاستعمارية والآخر الذي يمثل الشعوب الأصلية المستعمرة من أجل الهيمنة والسيطرة خدمة للمصالح.

خاتمة:

يعتبر إدوارد سعيد من بين منظري النظرية ما بعد الكولونيالية ومن بين أهم الذين تناولوا تفكيك الخطاب الكولونيالي وتحليل علاقته بالمعرفة والسلطة من خلال الكشف

¹ إدوارد سعيد: من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، مرجع سابق، ص323.

² ثقافة المقاومة تأليف مجموعة من الأكاديميين، مرجع سابق، ص15/14.

³ سليم حيولة: أدب ما بعد الاستعمار "الهجنة كشكل من أشكال المقاومة الثقافية"، ثقافة المقاومة تأليف مجموعة من الأكاديميين، مرجع سابق، ص416.

عن إشكاليات الخطاب الكولونيالي والإمبريالي الثقافي الغربي وذلك عبر أسس نقدية تأويلية تتجاوز الجمالية الأدبية إلى الكشف عن المخبوء الثقافي والأنساق المضمرّة التي تسعى الإمبريالية إلى تمريرها وتكريسها لدى السكان الأصليين من أجل الهيمنة الغربية لخدمة مصالحها محلا علاقة المؤسسات الاستشراقية من بينها المعرفة مع السلطة، كما لم يقف عند الكشف عن الأنساق المضمرّة فقط بل دعا إلى مقاومة ثقافية ضدية لأننا المركزية والتمركز حول الذات الأصلية وإثبات وجودها وإسماع صوتها ورفض المسلمات، فالتمثيل الذي حدث للشرقي في الحقبة الاستعمارية هو تمثيل معرفي خيالي مختلق من طرف الغربي لتسهيل عملية ذوبانه في ثقافة المركز.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- إدوارد سعيد: من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء الهجنة والإختلاف تر: محمد الجرطي، منشورات المتوسط، إيطاليا، ط1، 2016.
- 2- إدوارد سعيد: الاستشراق "المفاهيم الغربية للشرق"، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 المزيّدة 2006.
- 3- إدوارد سعيد: لعالم النص والناقد "دراسة نقدية"، تر: عبد الكريم محفوظ، إتحاد الكتاب العرب، ط2000.1.
- 4- إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، ط2014، 4، ص 94.
- 5- بيل أشكروفت وآخرون: دراسات ما بعد كولونيالية. المفاهيم الرئيسية، تر: أحمد الروبي وآخرون، تح: كريمة ساهي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط2010، 1.
- 6- ثقافة المقاومة تأليف مجموعة من الأكاديميين، إشراف وتحقيق: وحيد بن بوغزيز، إصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، د/ط، د/ت.
- 7- دوغلاس روبنسون: الترجمة والإمبراطوية "نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية"، تر: نائل ديب، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ط2005، 1.
- 8- رامي أبو شهاب: الرئيس والمخاتلة "خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر (النظرية والتطبيق)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2013.
- 9- سعد البازعي ميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2002.
- 10- سمير الخليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي المقارن "إضاءة توثيقية للمفاهيم المتداولة"، دار الكتابة العلمية، د/ط، د/ت.
- 11- لويس بن علي: إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018.